وصف البحتري

الوصف من ابواب الشعر منذ عهد الجاهلية ولكنه لم يختص بقصيدة واحدة الا اذا كانت اقتراحا او دعت اليها الحال وانما يجيء في تضاعيف القصيدة او يكون استدراجا واستتباعا كان يذكر امرا ويشبهه باخر فيصف هذا المشبه به وهو اكثر مايكون في الشعر القديم عند الفحول منهم خاصة كامرئ القيس والنابغة وزهير ومن جاراهم من شعراء الاسلام وهو لا يعدو امرين .

١ — الوصف الحسي وهو اظهار الصورة كما هي فيتبسط باظهار محاسنها وجمالاتها اويشبهها بما يقر بها من الاذهان وقد لاتنطبق على الحقيقة ولكنه المثال الاعلى عند الشاعر وذلك طبيعي في ذهن البدوي الساذج الذي يميل الى المبالغة واحيانا يخرج عن المعقول وقد تكون هذه المبالغة مالا يالفه اهل كل العصور فتجيء نابية يمجها الذوق

وقد جارى البحتري عمود الشعر — وزاد عليه كما ستعلم من الاستطراد في وصف مظاهر الحضارة ومرافقها .

٢ — الوصف التخيلي : وهو الذي يريده الشاعر في مخيلته فيتصوره ويصفه كانه موجود وهو من مميزات فحول الشعراء وقليل من هم في الادب العربي والبحتري فاق الجميع في ذلك ولا نبعد في وضع الحدود فهذا هو الوصف في كل الآداب وخاصة الراقية منها ولندخل الموضوع بسبيل التمثيل .

وصف الايوان

هي سينية مشهورة لاندري السبب الحقيقي الى نظمها انما يصرح البحتري انها جاءت اعتباطا وان زورة قيضت لها فجاءت كما يريدها الفن لا كما يريدها البحتري ولا ايوان كسرى .

اما متى نظم هذه القريدة فغير معروف تماما وانما يحصر في زمن مديح ابن ثوابه لقوله :

قد مدحنا ايوان كسرى وجئنا نستثيب النعمي من ابن ثوابه

ويرجح ان هذا المديح كان بوقت قريب من قصيدة الايوان ومتى علمنا ان للبحتري موقفا خاصا من بني ثوابه وانه هجاهم يوم كان يمدح الوزير الشكور ابا الصقر اسماعيل بن بلبل ثم كان ما كان كما سنذكر في فصل اخر وعاد الى مدحه فمدحه بقصيدتين قبل البائية وبالمقارنة نعلم انها سنة ٢٤٥ هـ فيكون البحتري في الستين من عمره لان اول قصيدة قالها في الوزير الشكور يقول في مطلعها

ترك السواد للابسيه وبيضا ونضا من الستين عنه مانضا

فتكون هذه القصيدة التي لم يختر ياقوت من كل شعر البحتري غيرها والتي يفخر بها البحتري وقد ذكرها مرتين في شعره قد قالها وهو في قمة شعره وقد عاش بعدها اربعاً وعشرين سنة .

مطلع القصيدة

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

وهذه القصيدة يخرج فيها عن العرف اي لم يستعمل الوصف في معرض المديح او الرثاء او اي نوع من انواع الشعر بل هي قصيدة خاصة بالايوان وقد اسماها مديحا تجوزا في قوله قد مدحنا ايوان كسرى وجئنا

يقول هذا لانه لم يكن للوصف باب خاص .

يوطئ للوصف بعشرة ابيات يذكر فيها انه في ضيق وفي هم وان الدهر لا يصفو الا الاحساء ثم يتخلص معرضا .

واذا ماجفيت كنت حريا　　ان ارى غير مصبح حيث امسي
حضرت رحلي الهموم فوجه　　ت الى ابيـــض المدائن عنسي

فهو على مذهبه الذي صرح به لابن بسطام قبل عشر سنوات من انه اذا حضرت رحله الهموم فما له الا توخيد المطي او خببه ولماذا ذهب ؟ الجواب ساذج على عادة البحتري لا يحتاج الى كد ذهن ولا الى تعليل ولا الى مواربة

اتسلى عن الحظـــوظ وآسي　　لمحـــل من آل ساسان درس
فقد جمعتها المصيبة حظ الشاعر كحـــظ الايوان كلاهما عاثر

وقف الشاعر امام هذا الايوان فدهش وغاب بالذكرى لا يدري كيف يبدأ فجعل يصف تخيلا ثم حسيا ولماذا قدم التخيـل ؟ ذلك طبيعي لانه لم يعد بذهنه الاعلى عظمة الاكاسرة فما قيمة هذا الايوان

ذكرتنيهم الخطـوب التوالي　　ولقد تذكر الخطوب وتنسي
وهم خافضون في ظـــل عال　　مشرف يحسر العيون ويخسى

بالطبع كان الايوان رسما دارسا فقط ونحن نعلم انه كان زمن الرشيد

قائما وانه استشار يحيى بن خالد في هدمه فاشار بالسلب فاعمل الهدم فيه نكاية ويقال انه لم يستطع هدمه ولكن بالطبع بعد مائة عام من الرشيد يوم وقف عليه البحتري كان قد تغير وحال .

نقل الدهر عهدهن عن الجدة حتى غدون انضاء ابس

الضمير يعود الى حلل في بيت سابق تركناه .

فكان الجرماز من عدم الانس واخلاله بنيه رمس

لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

تلك القصور التي غدت انضاء لبس شبيهة ببنية رمس ما اشد ماجعلت فيه الليالي مأتما وما اروع بيان البحتري في نسبة المأتم الى الليالي وهو ينبيك عن عجائب قوم لايشاب البيان فيهم بلبس

اما هذا البيان (البلاغة) في دلالة القصور على عظمة الفرس فلا لبس فيه .

فاذا مارايت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس

والمنايا مواثل وانو شر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اصـ ـفر يختال في صبيغة ورس

وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس

من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس

تصف العين انهم جد احيا ء لهم بينهم اشارة خرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس

هو يصف لنا صورة رسمت على جدران القصر وقد تهدم القصر اليوم ولا اثر للصورة فيه ولا اخال ان هذه الصورة كانت رائعة بحيث

ظن البحتري في خياله ان كسرى حقيقة كان يزجي الصفوف تحت الدرفس حتى احتاج ان يلمسها فيعلم انها حجر او حقيقة بشر نحن لانكر ان بيان البحتري يفوق الرسام وقد يكون بالفسيفساء وان صورة البحتري الشعرية خلدت مع فناء الحجر والايوان .

ثم وقد وقف على هذا القصر وجال في اطرافه حتى وصل الى حيث مقام كسرى منه وطابت له الحياه فدعا بابنه ابي الغوث ان يجود له الخمر وليشربها بين العسكرين خلسة من هيبة صاحب الدرفس وهنا يجيد في صفة الخمر كان الاجادة عدوى .

افرغت في الزجاج من كل قلب　　فهي محبوبة الى كل نفس

ثم اطبق عينيه وحلق بخياله .

وتوهمت ان كسرى ابرويز　　م معاطي والبلهبذ(١) الذي

هذه امنية الدهر يشرب البحتري في قصر كسرى ويكون ابرويز معاطيه انها حلم واي حلم

حلم مطبق على الشك عيني　　ام امان غيرن ظني وحدسي

الحلم لذيذ والذ منه الحلم في اليقظة وما اروع الشعر في حلم اليقظة .

ثم نظر الى الايوان بعين اليقظة فرآه رجلا ضعيفا (حوبا) مكتئبا في جنب جلس ارعن لايرعوي .

وكان الايوان من عجب الصنعة　　م حوب في جنب ارعن جلس

ثم جعل يصف هذا الحوب الضعيف الكئيب في الصباح والمساء.

---

(١) هو اسم علم لنديم كسرى . واظن ان قد اشتق منه اسم البلهوان للمهرج وقد يقال البهلوان بالقلب

مزعجـا بالفراق عن انس الف عز او مرهقا بتطليـق عرس
عـكست حظـه الليالي وبات الـ ـم مشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجـــلدا وعليـــه كلكل من كلاكل الدهر مرسي

هذه الصورة من خصب خيال الشاعر هذا الكئيب كأن انسه قد فارقه او ارهق بتطليق عرسه وهي حالات تبعث على الكآبة والانكسار وماذا يفعل وقد عـكست حظه الليالي وكانه قد اخذ عن صديقه المنجم فجعل يبحث في المشتري فماذا يفعل بالليالي وهي تجعل من المشـــتري كوكب نحس ومع كل ذلك لم يزل يبدي من التجلد، هذه صور من الظلم ان نصفها فننتقص من بهائها ثم يعود فيقول:

لم يعبه انه بز من بسط الديباج م واستلب من ستور الدمقس
مشمخر تعـلو له شرفات رفعت في رؤس رضوي وقدس
لابسات من البياض فما يبصر م منها الا فـــلائل برس
ليس يدري اصنع انس لجن سكونه ام صنع جن لانس

يريد ان يقول ان عظمة الايوان لم تكن بديباجه ودمقسه وقـد سلبه اياها الدهر انما عظمته في هذا العلو وهذه الشرفات التي تضاهي رءوس الجبال والتي تلبس هذا البياض الناصع ثم يعود فيتجاهل هؤلاء الصناع اهم جن ام انس .

غير اني اراه يشهد ان لم يك بانيه في الملوك بنكس
فكاني ارى المراتب والقو م اذا مابلغت اخرجـــي
فـكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقـــا م صير برجحن بين حو ولعس

وكأن اللقاء اول من امس م ووشك الفراق اول امس

هذا هو الوصف التخيلي الذي بز فيه البحتري من سبقه ولم يجاره بعده احد الايوان امامه متهدم والقوم قد فنوا واضمحل ملكهم والدهر قد قلب حظهم ومع ذلك يتخيل البحتري سالف عزهم وينظر اليهم في عنفوان ملكهم ولكن لا يفهم من الملكية الكسروية الا هذا النعيم الذي اوحى به اليه مكانهم في عهد الراحة عهد الشراب والمجالس كسرى على عرشه والقوم بين يديه مراتب مراتب والوفود يزدحمون على ابوابه باكرا وهم حاسروا الرؤوس خضوعا وواقفون حتى يؤذن لهم وهذه اوفى صورة للعظمة عظة الكسروية ويخضع لها (١٢٠) مرزبانا وكان لم يكتف بهذه العظمة فهذا السرور يحتاج الى ان ينصرف الملك عنهم الى صورة بديعة جميلة صورة تلك القيان مابين حواء ولعساء يرجحن في تلك المقاصير ولماذا اختار الحور اللعس ارُاه تصور (دار الخلد) ام حلق بتفكيره الى الخلد وحوره ؟

كل هذا قد راه رأي عين وهو يظن انه قد غاب عنه منذ يوم او على الاكثر منذ يومين ارى الخمر التي لم يصردها ابو الغوث ارته هذه الصور الجميلة ام شيطانه العبقري عاد به الى تلك العصور الزاهية فوصفها له :

ثم يختم القصيدة وقد اسماها مدحا بانه يصف الايوان لان قومه كان لهم عند اليمن قومه يد بيضاء ثم يذكر تلك اليد كما يرويها التاريخ من مناصرة اليمن على طرد الاحباش .

الذئب

وفي هذه الحقبة نرى له قصيدة رائعة اخرى وهي ان لم تجار هذه السينية في سعة الخيال فانها تفوقها في البيان واشراقه والجزالة واسرها ونعتذر عن ذكرها كلها فنقتصر على ذكر مايفيد التمثيل :

وليل كأن الصبح في اخرياته حشاشة نصل ضم افرنده غمد
تسربلته والذئب وسنان هاجع بعين ابن ليل ماله بالكرى عهد
اثير القطا الكدري عن جثمانه وتألفني فيه الثعالب والربد

هذه صور فيها ماهو حسي وفيها التخيلي. التشبيه معروف ولكنه قد ابرزه بهذه الصورة الجميلة الصبح نصل ضم افرنده غمد دائما انه يثير القطا عن جثمان الليل فهو بديع جدا كان الليل ليس بهاجع فقط بل مائت حتى وقعت القطا على جثمانه ثم يحيء الى وصف الذئب على طريقته الحسية .

واطلس ملء العين يحمل زوره واضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثل الرشاء يجره ومتن كمتن القوس اعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه الا العظم والروح والجلد
يضقض عصلا في اسرتها الردى كقضقضة المقرور ارعده البرد

هذه صور حادثة ساذجة يحسن ان تقابل بصفة الذئب عند الشنفرى في اللامية لتعلم كيف تطور البيان العربي ثم يصف بعد ذلك الواقعة .

سمالي وبي من شدة الجوع مابه ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم اقعى فارتجزت فهجته فاقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فاوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد الا جرأة وصرامة وايقنت ان الامر منه هو الجد
فاتبعتها اخرى فاضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد اوردته منهل الردى على ظمأ لو انه عذب الورد

وهذه صفة تخيلية وكأني ببدوي في الصحراء يصف لنا مغامرة جرت معه ولكن البحتري لايتأنق ولا يخرج عن المألوف فهو حقيقي لامثالي قصة طبيعية لايميزها الا هذا البيان الناصع فالبحتري جارى الشعراء قبله ونسج على منوالهم ولم يات بالجديد .

ثم يقول بعد ذلك بلغة البدوي .

وقمت فجمعت الحصى فاشتويته عليها وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه ثم تركته واقلعت عنه وهو منعفر فرد

يخرج البحتري على الطبيعة هو في ليل الصحراء فمن اين جاء بهذه الرمضاء التي ثوي الذئب عليها .واما قوله نلت خسيسا ليطابق قوله اولا كلانا بها ذئب يحدث نفسه لصاحبه وهي تمثل لنا البدوي القانص لا يهتم ان يكذبه السامع بل يشبع نفسه من هذا الخيال

وصف صراع الفتح بن خاقان والاسد .

هذه قصيدة مدح كانت ينبو عاثرا لشاعر فحل هو المتنبي وصاحب مقامات هو بديع الزمان الهمذاني فالاول استعمل معناها وكان بيانه يغنيه عن ان يتخذ الفاظها والفضل المتقدم والثاني اغار على الفاظها ومعانيها ومن الغريب انها عرفت به ونسبت الى بطلها بشر

بن عوانة .

يقول البحتري بعد ان وصف الاسد معنويا اي شجاعته واعماله خلافا لما وصف الذئب

فلم ار ضرغامين اصدق منكما عراكا اذا الهيابة النكس كذبا
هزبر مشى يبغي هزبرا واغلب من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا
ازل بشغب ثم هالته صولة رآك لها امضى جنانا واشغبا

فاحجم لما لم يجد فيك مطمعاً واقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه ان كر نحوك مقبلا ولم ينجه ان حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا

هنا وصف واقعة حال لم يتصنع فيها ولا تخيل ماليس موجودا وانما وصف الامير الشجاع بانه قتل الاسد وطبيعي ان يفضل الفارس على الاسد لانه قتله فليس فيها ما يميزها عن ذكر الحادثات العادية اننا يبرزها الشاعر في قالب محبب الى السماع شان شعر البحتري عندما يكون في معرض الرضى والسرور .

وصف القصور

من الطبيعي ان نجد في هذا الديوان الفخم الذي انشد اكثره في قصور الخلافة والوزارة ان تنال هذه الحضارة منه نصيبا وافرا وكان ان هؤلاء الخلفاء استجدوا قصورا لحداثة مدينتهم سرمرا وكان من الطبيعي ان يذكر هذه المرافق فرأينا اسماء القصور الجعفرية اولها وقد تكون المتوكلية فالصفة واحدة ولم اهتد الى الفرق بينها وجعفر هو المتوكل ثم (الفرد) ووردت بالفين ويظهر انها الفرد بالفاء وقد ورد في الجاهلية اسم (الابلق الفرد) اسم حصن ثم البديع والكامل ثم المشوق والمعشوق ثم الساج وكلها متشابهة يقول من قصيدة مديح في وصف الجعفرية :

فرفعت بنيانا كان مناره ... اعلام رضوى او شواهق صير
ازرى على همم الملوك وغض من ... بنيان كسرى في الزمان وقيصر
عال على لحظ العيون كانما ... ينظرن منه الى بياض المشتري
ملات جوانبه الفضاء وعانقت ... شرفاته قطع السحاب الممطر
وتسير دجلة تحته فتناوله ... من لجة غمر وروض اخضر
شجر تلاعبه الرياح فتنثني ... اعطافه في سائح متفجر

هذا وصف لايزيد شعر البحتري قيمة فهو اولي كما نرى وليس فيه غير المبالغة المقبولة باستعمال كان فهو عال الى السماء ، وما بعد ذلك لايزيدنا معرفة بالقصر الا بانه عظيم كبير وقبلا قال الفرزدق في صفة

علو قصر (ثمانون قامة) فلم يزد في معرفتنا به شيئا ومن المعلوم ان هذا الشعر كان في المتوكل والفرق ظاهر بينه وبين شعره زمن المعتمد .

ودونك قطعة اخرى في وصف الكامل زمن المعتز

لما كملت روية وعزيمة ... اعملت رايك في ابتناء الكامل
رفعت لمخترق الرياح سموكه ... وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكان حيطان الزجاج بجوه ... لجج يمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام اذا التقى ... تاليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ... ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه ... نورا يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق ... متلهب العالي انيق السافل

فترى هنا انه قد تبسط في وصف اجزائه وزينته ويلاحظ ان الشاعر ارخى لنفسه العنان شأنه في مديح المعتز فلم يكن يتحرج ولا يهمنا أموافقة هذه الاوصاف للحقيقة ام غير موافقة فان الشاعر يجول فيها جولات صادقات وقد فنيت القصور وزالت وبقي هذا الوصف خالدا بقيت هذه الرسوم الدوارس ولكن هذا الزجاج والرخام لم يبق منه الا الذكريات بله الذهب الصقيل الذي كان يضيء الظلام في سقوفه .

ولا اترك هذا الفصل بدون ان اذكر ماقال في الزو لازالة وهم دائرة المعارف الاسلامية قال في مديح المتوكل .

فلم ار كالقاطول يحمل ماؤه ... تدفق بحر بالسماحة طامي

ولا جبلا كالزوّ يوقف تارة ... وينقاد اما قدته بزمام

ثم يقول في مدح المعتز :

تعجبت من فرعون اذ ظن انه ... اله لان النيل من تحته يجري
ولو ابصرت عيناه بالزو لازدرى ... حقير الذي نالت يداه من الامر
اذا لراى قصرا على ظهر لجة ... يروح ويغدو فوق امواجها يجري
تصاد الوحوش في حفافي طريقه ... ويستنزل الطير العوالي على قسر

ولا يحتاج هذا الكلام لتوضيح واظهار خطأ من ظن ان الزو قصر وهو سفينة معروفة .

ولا يحسن بنا ان نترك الوصف دون ان نشير الى البركة المتوكلية فهي رائعة ولكن شهرتها تغني عن ذكرها وليس فيها مايزيد على ماقلنا

وهنالك موقف البحتري من مظاهر الخلافة وذكر الجيوش وصفاتها في معرض الاعياد او في طريق الغزو او في الذب عن حوض الخلافة او في رد المارقين او وصف غرق الفتح بن خاقان او وصف السفر والسفينة فضلا عن صفات الخيل والغلمان والنبيذ والشراب والربيع والنيروز وماشاكل والحقيقة ان كل قصيدة في الديوان ناطقة بهذه الظاهرة فلو لم يكن البحتري شاعرا لكان مصورا او كلاهما من روائع الفنون الرفيعة .

الشعر المصنوع

عند ابي الصقر :

هذا وزير المعتمد عاقل مدبر عالم هو عربي شيباني يحرص على هذا النسب ويفاخر به هو بعيد كل البعد عن حوك الدسائس لاكتساب الاموال يرجع في جميع اموره الى العقل والرصانة وقد اكتسب لقب الشكور ويصرح البحتري بهذا اللقب وقد مدحه بثلاث وعشرين قصيدة بين مطولة ومقطوعة

في هذه القصائد وجوه عديدة لشعر البحتري اهمها انها تفتقر الى رونق قصائد الخلائف والى اشراق ديباجة الشباب والفتوة وتلك النار اللاهبة فان للفكر واعماله وللتعمل والصنعة حكما قد طبع هذه القصائد وارانا البحتري بثوبه الخضري المنمق ولكن هذا الوشي والتنميق اخلق تلك الديباجة ولم يغسل من قيم الشاعرية . نختار له قصيدة هادئة رزينة تدل على رهبة الشاعر امام هؤلاء الوزراء العلماء الذين يحاسبون على كل كلة ويفهمون الشعر وترى قصائده فيهم طويلة ومتنوعة الموضوعات ومطلع القصيدة .

اعن سفه يوم الابيرق ام حلم وقوف بربع او بكاء على رسم

والرجوع الى القديم لايحتاج الى ايضاح في هذا المطلع .

ثم غزل غريب فلا علوة ولا ايام الشام ولا الطيف ولا هذه الخمرة ولا البديع المرقص حتى ولا هذا الارصاد الذي كان مغرما به .

تخبريني ايامي الحـــدث انـــني　　تركت السرور عند ايامي القدم
واولعت بالكـتمان حتى كانني　　طويت على ضغن من الدين او وغم

فهذه الايام الحدث وطباقها القدم مع تغاضينا عن هفـــوات البحتري لانراها توافق ذوقه وهو في مجلس الوزير مدبر شؤون الخلافـة الدينية والدنيوية يشير الى هؤلاء الذين يطوون على ضغينـــة للدين فيظهرون خلاف مايبطنون .

فان تلقني نضو العظـــام فانها　　جريرة قلبي منذجرت على جسمي

وهذا التفات الى الفقه ايضا فانه جار على جسمه عندما اتبع جريرة قلبه فكان القصاص انه امسى نضو العظام الا ترى اعتساف الشاعـر وركوبه الصعب في هذه المخارم التي لم يتعودها :

ثم يتبع ذلك بتعليل اقل ما يقال فيه انه غير بحتري المذهب المعروف

وحسبي من برء تماثـــل مثخـن　　من الحب ينمي مدريه ولايصمي
اذا راجعت وصلا على طول هجرة　　تراجعت شيئا من بلائي الى سقمي

هذا الغزل بعيد كل البعد عن مذهب البحتري ولكنـــه تهيب الوزير فزم بيانه بمثل هذه الاباطيل .

ثم يتخلص بدون عنف ولا صلة من الغزل اذا صح ان ينسـب هذا الى الفخر باليمن .

خليلي مالي لاشفاء من الجـوى　　ولا نعم مرجوة النجح من نعم
اعينا على قلب يهيم صـــبابة　　وعين اذا نهنهتها ابدا تهمـــي
حنت مذحج حولي وباتت عمائر　　تدافع دوني من عرانينها الشـــم

هذا الجناس بين نعم ونعم هزيل جدا وهذا الانتقال من الغزل

الى الفخر بهلواني ثم يذكر هجاء احمد ابن صالح القطربلي ويصفه بكثرة المال والبخل ويعلن بيتا خالدا :

اذا المرء لم يجعل غناه ذريعة الى سؤدد فاعدد غناه من العدم

ثم يذم اهل المهجو بالخسة وانهم خفوف زمان السوء (وهي صورة جميلة) حتى يتخلص الى مديح ابي الصقر .

فلولا ابو الصقر الاغر وجوده رضيت قليلي واقتصرت على قسمي

ثم يمدحه مديح وزير مدبر هو المثل الاعلى للوزارة

اذا وعد ارفضت عطاء عداته واعرف منهم من يحز ولا يدمي
ولا كشفت عنه الوزارة اخرق م اليدين على الجلى ولا طائش السهم
كثير جهات الرأي مفتنة به الى عدد لاينثني صور الحزم

الى ن يقول :

كأنك من جذم من الناس مفرد وسائر من يأتي الدنيات من جذم
كانا عدوا ملتقى ما تقاربت بنا الدار الا زاد غرمك في غنمي

هذا مديح فاخر يرجع في كل بيت منه الى اختيار الكلم وتنخلها ووضعها مواضعها فانه لم يرضه مافي اول القصيدة من هذا الاعتساف وهو ليس من طبعه — حتى وفق اخيرا الى اظهار فكرته ولكنها ليس على ذلك القالب الجذاب الذي يجعل شعر البحتري في طليعة الشعراء

قد ذهبت قوته بذهاب شبابه ولم يكن حظه الا في دور الخلافة

المناقضات عند البحتري

ارضيهم قولا ولا يرضـــوني　　فعلا وتلك قضية لم تقصـــد
فادم منهـــم ماينم وربمـــا　　سامحتهم فحمدت مالم يحمـــد

عابوا على البحتري عدم وفائه فان في شعره مديح قوم وهجاءهم وبالعكس يهجوهم اولائم يعود فيمدحهم وقالوا ان هذه صفة لاتليق بالبحتري وهو الذي يبعد عن كل هذه المواقف الشائنة بالوفاء ونقول ان الشاعر هو ابن يومه ان لم يكن ابن ساعته وهو لايتقيد بما يقول وكنت احسب ان البحتري سار بسيرة الفرزدق بهذا الشأن وقول الفرزدق مأثور (نكون مع احدهم مادام الله معه فاذا فارقه فارقناه) وهو يريد انه يمدحهم ماداموا امراء ولكن اذا غضب عليهم اوعزلوا فيكون عليهم للبحتري مثل هذا الموقف ولكن له غيره مما لا يتصل بالعزل والولايه كما ترى كثيرا من الشعراء جرى لهم ما جرى للبحتري من المديح والهجاء ولم يضرهم ذلك ولاحط من شعرهم والحقيقة ان الشاعر ملب لدعوة عاطفة وقد تكون لاهبة فالعاطفة والثبات لا يجتمعان وقد رأيت كيف دافع البحتري عن نظريتـه عندما وقف من ابن طـاهر فهو كان يرد كل شيء الى العاطفة والشعر ويبعدها عن التعقل والموازنة والترجيح او التعمق في ابداء الرأي والتـحرز هذا هو الرأي الذي وصلت اليه بعد درس عميق وكنت اولا قصدت الى ان البحتري جارى بشارا او بالاحرى دعبلا في طريقتـه ودعبل صديق له وقد كان جليسه وخـدنه وقد كتب مرة الى صديقها علي بن يحيى المنجم .

مادا تقول ولم تزل ذا همـة فضل تقول بها الجميل وتفعل
في فتية بكروا عني تطـربا من اوجه شتي وفيهم دعبل

ويدل دلالة صريحة ان دعبلا كان في فتية التطـرب اي لم يكن خصيصه وطريقة دعبل لا تخفى وهي ان الهجـاء المقذع آخذ بضبع الشاعر من المـديح المضرع وفسره برده على ابي خالد الخزاعي وقد لامه على الهجاء (ويحك اني تأملت ما تقول فوجدت اكثر الناس لا ينتفع بهم الا على رهبة ولا يبالي بالشاعر وان كان مجيداً اذا لم يخف شره وان يتقيك على عرضه اكثر ممن يرغب اليك في تشريفه وعيوب الناس اكثر من محاسنهم وليس كل من شرفتـه ولا كل من وصفتـه بالجود والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك فاذا رآك قد اوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الاخر

وهو كلام مقتبس من قول بشار وفي عصر البحتري كان ابن الرومي يذهب مثل هذه المذاهب ولكن البحتري الحاذق النافذ الراي علم ان هـــذه الطريقة قد ماتت بذهاب امراء البادية والمتقربين الى الاسلام والعرب في بدء الامر اما الان فالوزراء من الموالي والامراء من العرب يسيرون بسيرة هؤلاء القادة الذين لا يؤثر فيهم مـديح ولا يخشون عرضا ولا فضيحة وهم يلجئون الى سيوفهم وغدرهم واحزابهم فضـلا عن ان البحتري لم يكن شرسا ولا شكسا وكان رضي الخلق كما يلاحظ من كل شعره .

بعد هذا يرجح عندي الراي الاول وهو ان هذا الهجاء جاء لهـا بدون تعمد او تنبيه انزوة كانت متاثرة ببدوة فرطت عن امر وهـو

يصرح ولا يجمجم .

ارضيهم قـــولا ولا يرضونني فعلا وتلك قضيـة لم تقصـــد
فادم منهم ما يذم وربمـــا سامحتهم فحمدت مالم يحمـــد

وبعد لنرَ هذه البواعث

هجا بني ثوابة وبني عبد الاعلى بقوله :

قصـة التل فاسمعوهـــا عجابه ان في مثلهـــا تطول الخطابه
ادعى التل فرقتان تلاحوا آل عبد الاعلى وآل ثوابه
حـكم العادل الجنيدي فيهم بصواب فلا عدمنا صوابه
احفروا التل يابني عبد الاعلى واثيروا صخوره وترابـه
ان وجدتم فيه شباك ابيكم كنتم دون غـيركم اربابه
او وجدتم مخاجما ان حفرتم زل شك العصابة المرتابـه
فبدت جونة من الخوص فيهـا آلة الشيخ وهو جدّ لبـابه

هذا امر هجاء يسير فيه بسيرة الاقدمين ويدلم دلالة واضحة على رسوخ قدم البحتري بالهجاء وحسن صنعته وكانه في هـذه الابيات التهكمية ينظر الى قصة ذكرت في مجلس زياد ابن ابيـــه في البصرة وتلخص بان بني راسب وبني طفاوة تخاصما في ملك غلام فقام احـد الحضور وكان زكنا فكلمافقال حضرتي حكم لارد له ايها الاميرليطارح الغلام في النهر فان رسب فهو لبني راسب وان طفا فهو لبني طفاوة .

وقصة هذا (التل) عجب غلط فيها طابع الاغاني فرواها النيـل وذلك ملابسة هذه وبيت اخر يقول فيه :

ما كسبنا من احمـــد بن عبي ومن النيل غـــير حمى النيل

اما نسبة الحكم الى الجنيدي فحكم الوزن وهو يريد انه حكم عادل لايرد ان وجدتم بالتل شبا كما قالتل ابني عبد الاعلى وانه وجـــدتم محاجم فهو لبني ثوابة يريد ان يقول ان جد بني عبدالاعلى كان سما كما وجد بني ثوابة كان حجاما .

فلما بلغت الابيات الوزير (الكاتب) احمد بن محمد بن ثوابة بعث اليه بالف درهم وثياب ودابة بسرجها ولجامها فردها اليه وقال قـــد اسلفتكم اسامة لايجوز معها قبول رفدكم فكتب اليه الوزير (اما الاساءة فمغفورة واما المذرة فمشكورة والحسنات يذهبن بالسيئات . مايأسو جراحك مثل يدك وقد رددت اليك مارددته علي واضعفتـه فان تلافيت مافرط منك اثبنا وشكرنا وان لم تفعل احتملنا وصبرنا) فقبل مابعث به وكتب اليه (كلامك والله احسن من شعري وقد اسلفتني ما اخجلتني وحملتني ماانقلتني وسياتيك ثنائي) ثم غـــدا اليه بقصيدة مطلعها ضلال لها ماذا ارادت من الصد) وقال فيه بعد ذلك : (برق اضاء العقيق عن ضرمه) وقال فيه ايضا : ان دعاه داعي الهـوى فاجابه (ملخصة عن الاغاني) .

وهذه الرواية صحيحة يثبتها مافي الديوان والقصائد مرتبة غير هذا الترتيب وكلها تدل على شعر البحتري في هؤلاء الكتاب الادباء .

والمتامل يرى ان رجوع البحتري الى مديح بني ثوابة كان لموقفهم من هجائه فانه كان باستطاعته ان يحرمه وان يناوئه ولكنه اجازه وقوله (ان تلافيت اثبنا وشكرنا وان لم تفعـل احتملنا وصـبرنا) احراج مابعده احراج لموقف البحتري فلم يكن منه الا ان ندم واعتذر ومدح وهو موقف عادي

والموقف الثاني الذي يسجل على البحتري هو موقفه من الخليفة المستعين وهذا طبيعي ايضا فانه لما بويع بالخلافة وكان ذلك من حق صديقه ورئيس حزبه المعتز حمل البحتري هذا المظهر على عادة العصر وديدن الاتراك فقد صار الامر الى المستعين وهو احمد بن محمد بن المعتصم اي ابن اخي التوكل فمدحه ووقف المستعين منه موقف خزي فلم يقدمه ولم يبعده وبقي معه وهو يمدحه وموقفه لم يتغير حتى كانت الفتنة بين المستعين والمعتز فكان من الطبيعي ان يكون البحتري في حزب المعتز قد اقتصر في هذه الحزبية ولكنه عمل براي صديقه المنجم فزار المعتز في السجن وانشده ولما آلت الخلافة الى المعتز وقتل المستعين جاء كما ينبغي يمدح المعتز وكان من الطبيعي ان يشير الى الفتنة وراسها وان لا يترك صاحب الفتنة من غمز القناة ليسر المعتز المالك سعيدا . الا ترى الى بعض جرائد هذه الايام كيف تقف من كل حكومة موقف الداعية وتزيد في النكاية فتذكر الحزب المناوي بكل شر ومن المعلوم ان البحتري جاري المعتز في اول قصائده ثم لما تنوسي امر المستعين جعل يمدح المعتز بدون ان يذكره مما يدل على ان ذكره ليسر المعتز والفتنة قريبة عهد .

وهذا الهجاء ليس من طبع البحتري بل ساقه اليه الزمن والسياسة وكذا الامر في ابن الخصيب وزير المنتصر فلما كان وزيرا مدحه ثم لما غضب عليه الخليفة وقتله مدح الخليفة وذم ابن الخصيب وكذلك يقال في امر ابن طولون فلما كان عامل الخليفة كان على البحتري ان يمدحه ولكن لما شق عصا الطاعة وحارب جيوش الخليفة وقهرها كان من

العادي ان يهجوه وان يكون سيفا من سيوف الخلافة يقطع بلسانه .

ونرى هذا الامر عاديا في ائمة ادباء هذا العصر العالمي فهذا برناردشو وجيد مدحا الشيوعية ثم نقما عليها ويقيم الانسان على رأي حتى يرى ماينقضه .

اما ماينسب الى موقف البحتري من الفتح وعتابه فليس فيه شيء من الهجاء انما هو ادلال غر لم يتعود عادات الخلافة وتطاباتها .

تشيع البحتري

اراد بعضهم ان ينسب الى البحتري ميله الى بني امية ومثل على ذلك بابيات قالها في اول امره بالشعر يوم كان ينشد محمد بن يوسف وابنه والابيات يقولها في ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري وقد سلم الى كاتب نصراني لسعيد الحاجب وامر بتعذيبه والغلظة عليه في المطالبة والاستخراج .

ياضيعة الدنيا وضيعة اهلها　　والمسلمين وضيعة الاسلام
طلبت دخول الشرك في ارض الهدى بين المداد والسن الاقلام
هذا ابن يوسف في يدي اعوانه　　يجزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن　　عنه اميـة لو رعت بنيام

وهذه غيرة بحترية تشبه تلك النزوة التي قالها يوم قتل المتوكل وجعل يتوعد ولي العهد انذاك ثم اصبح الخليفة ولآن نراه يصبح اذ ابصر ولي نعمته يسلم ليعذب وهذه الاقوال تصدر بعدم اتزان ومقارنة لاقيمة لها وقد رأينا البحتري في عنفوان شعره يفضل خلافة العباسيين على جميع مناوئيهم حتى انه يذكر بني امية .

وانتم بني عم النبي محمـد　　بين قريش اذ سواكم شمالها
وقد سرني ان الخلافة فيكم　　مخيمة ما ان يخاف انتقالها
لكم ارثها والحق فيها ولم يكن　　لغيركم الا اسمها وانتحالها
وان بني حرب ومروان اصبحوا　　بدار هوان قد عراكم نكالها

اتراه كان يعتذر للمتوكل عن هفوته وان يطمئن باله ان بني حرب وبني مروان امسوا بدار الهوان وانهم لا يرجى منهم ان يطلبوا خلافات

وللبحتري مظهر اخر وهو صريح رد على علي بن الجهم وكان هـذا الاخير يتقرب الى المتوكل بسب عـلي وآله ولم يكن البحتري ممن يتشيع ولكن غاظه ان يرى هذا التذبذب فصاح به .

لاية حالة تهجو عليـاً بما افقت من كذوب وزور

وقد افحش في هذا الرد .

او ان يسمع الحسن بن رجاء يتهجم على العلويين ومنهم من يقول انه قالها لعلي بن الجهم نفسه فيجيبه :

ان وقفت سوقك او اكسدت بضاعة من شعرك الخائب

انحيت كي تذفقهـا زاريا على عـلي بن ابي طالب

ولا يعني هذا انه كان يرى عليا وابناء علي اصلح من سواهم ولكنه غار على الكرامة ولا يمكن ان تنسب هذه الابيات في مديح المنتصر في انصاف الطالبين الى تشيع الشاعر فان المنتصر كان خلافا لابيه يرى ان الطالبين اهله وذوو قرباه .

ومن المعلوم ان المتوكل جار على الطالبين وعاملهم معاملة سيئة فكان من الطبيعي ان يحدث هذا العمل رد فعل في نفوس كرام المسلمين وكان على رأسهم ولي العهد المنتصر وقد يكون ذلك طبيعيا فالمتوكل يرى في المنتصر خصما فيلجأ هذا الى اعداء ابيه المتوكل وهم الطالبيون واشياعهم وعند ذلك تصبح حلقة مفرغة كل ينسب سبق خصمه الى هذا الموقف العدائي ولما آلت الخلافة الى المنتصر كان من

الطبيبي ان بني لهم بالعهد ويرفع عنهم المظالم ويدخل البحتري في هذه الغمرة ويمدح الخليفة فيذكر مايلابسها وينتهي ذلك بموت الخليفة المنتصر مما يدل على ان عمله سياسي لا ديني .

اما أن البحتري كان يتفلسف بالعقائد فطبعه بعيد عن كل ذلك واذا رايناله مثل هذه النظرات الصائبة فما تدعو اليه الحال ولا نعدم التمثيل على كثير من اراء الفرق الاسلامية واختلافها

هو الحظ ينقص مقداره لمن وزن الحظ او كاله
ارى الخير والشر من معدن واكثار ساع واقلاله

او قوله :

يزعم البر في التشدد م والاسمح اولى بان يبر ويدني
يحتشي زلة الخطار وارجو عودة من عوائد الله تمنى
لم تلمني اني سمحت ولكن لمت اني احسنت بالله ظنا

وهو في مثل هذه الاقوال لا يدل على مذهب ولكنه يسوق الحكم سوقا ويتأثر بالشعراء الذين ينغمسون في الحياة الاباحية وهو يرجو عفو ربه ولا يبعد ان يكون هذا طبيعيا لمن يسير بهذه السيرة ولا يحتاج الى امام يضع اصولا لكل فكر يرد على خاطر شاعر

علوة والخيال

واذا ما ابى الحبيب مؤانا تي تبلغت بالخيال الملم

الغزل من ضروريات المديح في عصر البحتري وكما كان الوقوف على الاطلال في زمن الجاهلية والاسلام من لزوميات البدء في القصائد اصبح الغزل الجديد من لزوميات البدء في المديح اخذ البحتري به ولم يعدل عنه في قصيدة واحدة واذا تتبعنا شعر البحتري نرى انه جرى في اول امره على منهاج من تقدمه وكان جافيا نوعا ومتكلفا في اكثره ولكنه اتخذ اسلوبا واحدا لم يحد عنه في جميع اطوار شعره

وكان يصف الطيف ويسترسل في مداعبته وهي طريقة جديدة لزمها وتوسع فيها من مدائحه الاولى في محمد بن يوسف الثغري الى بني حميد الى ان جاء العراق واتصل بالخلفاء وانما يمتاز خياله قبل العراق بانه لم يكن يخص امرأه بنفسها بل كان يهتدي بهدي القدماء انظر اليه في مطلع قصيدة يمدح بها يوسف بن محمد

لاوشك شعب الحي ان يتفرقا فيدمى الجوى او يرجع الحب اولقا
اما ان في ذاك النقا لاوانساً تثنى اعالينه لينا على النقا

ويعجبني هنا بيت ينظر الى ابي نواس :

تبلد فيها الحسن حتى انتهى بها وابدع فيها الظرف حتى تزندقا

حتى يصل الى ما نعني :

وطيف سرى حتى تناول فتية سروا يلبسون الليل حتى تمزقا

فعادوا ويوم الهجر اسوان بعدما　　قرعنا له بابا من الشوق مغلقا
وما قصرت في درغنون رماحنا　　فيرجع منها الطرف غضبان محنقا
أظالمة العينين مظلومة الحشا　　ضعيفته كفي الخيال المؤرقا

هذا على ما يظن اول ذكر للخيال عنده ثم اخذ يعيد المعنى ويجود في الشعر فيجود الوصف ويرق شعره ويصفو وصفه وخياله . انظر الى قوله في محمد بن حميد الطوسي المكنى بابي نهشل

هذا الحبيب فمرحبا بخيـــاله　　انى اهتدى والليل في سرباله
بل كيف زار ودونه مجهولة　　من سبسب قفر يمـــور بآله
سار تجاوز من شقائق عالج　　بعد المدى من سهله وجبـاله
حتى تقنصه الكري لتيم　　لولا الكرى لشفاه من بلباله

هذا معنى ساذج يجسم البدوي هذا الخيال ويستصعب سراه في هذه السباسب وسيره بين هذا الآل حتى تصيده الكرى وهو معنى شعري ظريف ولكنه لم يزل على بداءته . ولما جاء العراق جرى على سننه وفي مدائح الفتح الاولى لم يخص واحدة بل رأيناه يقول من غزل قصيدة:

وما ناديتني للشوق الا　　عجلت به فلبيت المنادي
فأين بحاجة وجذبن قلبا　　تأبى ثم اصحب في القياد
خطية ليلة تمضي ولمـــا　　يؤرقني خيال من سعـاد

ها قد ذكر اسم سعاد وقرنه بالخيال وقدما رأيناه يذكر غـــير سعاد على عادة الشعراء ثم يجانس ويورى بالاسماء ولكنا رأينا لاول مرة اسم امرأة يقرنه ببلاده

جفوت الشام مرتبعي وانسي　　وعلوة خلتي وهوى فؤادي

ومثل ذلك اذهاني حبيبي واكسبني سلواً عن بلادي

ومن هذا التاريخ برز اسم هذه المرأة واضحا في غزله وهو يصر على انها امرأة حقيقية وانها من احدى قرى حلب (بطباس) ثم يقرن باسمها اسم الشام جميعا واسم هذه المنازه على قويق وفي قرى حلب حتى منبج وقد جهدت في ان اعرف كثيرا عن هذه المرأة التي خلدت في شعر البحتري والتي زانته بهذه الروائع فلم اهتد الى ما يروي غلة وللاسماء من الحظوظ ما لغيرها فرب اسم مر عرضا ولم يأبه له احد ثم اصبح على شفة كل انسان هذا ابو زيد السروجي مر في البصرة يوما ثم قيض له من الحريري ان جعله علما فذا في عالم الادب قلّ من لم يسمع به وإليه ينسب كثيرا من العلوم والفنون الادبية

وبعد اكانت علوة هذه امراة بعينها ام اخترعها البحتري عروسه لشعره ؟ بالتحقيق يعلم ان علوة هي امراة حقيقية وانها تنسب الى امها زريقة وكانت غسالة او هي نفسها كانت غسالة وعليها لمحة من الجمال ولا تدري اية ساعة سرور مر البحتري وهو شاب ببطباس فراها فوقعت من نفسه . هل جاذبها الحديث ؟ هل علم انها تصلح لهذه المنزلة من شعره ؟ او هل كان يحلم بان شعره سيخلد واننا بعد الف ومئتي سنة نجهد هذا الجهد في البحث عن امراة ذكرها في شعره الله اعلم

اننا نعلم مذهب البحتري في الحياة هو يؤمن بهذه الاتفاقات هو يسير كما تقوده الحياة انه لشاعر وانطباع نفسه الاول له اثر كبير في توجيه هذا الذهن الوقاد .

لم يصف علوة بالادب كما كانت هذه اقيان الشواعر في بغداد او

في دور الخلافة . كان يشعر بهؤلاء القيان الشواعر ولكنه لم يكن يعيرهن اقل اهتمام ولم يتدخل في شأن من شؤونهن بل كان يذكرهن عرضا ولم يسم احداهن كما كان يفعل غيره من الشعراء المعاصرين واذا ذكرهن فليزه علوة ان تكون مثلهن هو يصف علوة بانهـــا خفرة كأن الخفر لم يكن من صفات هؤلاء .

كم ليلة فيك بت اسهرهـا ولوعة من هواك أضمرها
وحرقة والدموع تطفئهـا ثم يعود الجوى فيسعرهـا
ياعلو عل الزمان يعقبنـا ايام وصل نظل نشكرهـا
بيضاء رود الشباب قد غمست في خجل دائب يعصفرها
مجدولة هزها الصبا فشجـا قلبك مسموعها ومنظرهـا
لاتبعث العود تستعين به ولا تبيت الاوتار تخفرهـا
الله جار لها فمـا امتلأت عيني الا من حيث ابصرها
ان قويقـــا له علي يد بيضاء الامس است اكفرها
وليلة الشك وهو ثالثنـــا كانت هنات والله يغفرها

هو ذا يصفها ويصف ليلة معها هو بعيد عن الطيف والخيال الان هو يذكر حقيقة وهل يصدق الشاعر ؟ فما هذا المسموع الذي يعني؟ هل يريد انها تغني لذكر مايلزم الغناء عند القيان كالعود والاوتار هي تغني شان هؤلاء القرويات كما تريد ان تغني لايهذب غناءها صنعة ولا تتقيد بقوانين وهو الشاب القروي يلذ له هذا الغناء ويلذ له مايوافق هذا الغناء وهل يستطيع هذا الشاب المحروب بكل عاطفة ان يختار في هواه وان يميز بين الغث والسمين هو في ليلة الشك على ضفة قويق

(غير قويق هذه الايام) هو يسمع بغير اذنه ولا اخاله ينظر وايـــلة الشك لاتميز معها الالوان هو موقف الشاب وقد اوتي منـاه تلك ليلة من ليالي القرى في ضواحي حلب وهي يد للدهر لاينساها ورأيناه دائماً يذكرها وهو يسميها هنات والهنات هينات فهو يذهب مذهب استاذه ابي نواس في اقتراف الخطايا ولكنه لايجترح منها كما كان ابو نواس .

وهو يردد اسم علوة في العراق وقد اتخذ منها المثال الاعلى لاجمال وحفظ العهود وهل حفظ عهدها لتحفظ عهده ؟ هذا لايعرفه شاعر ولا يعرفه رجل وخاصة في الشرق السمح ولكنه يريدهـا ان تصبر على طول غربته والاغرب انها غير خالية هي حرم لرجل سواه ولكن البحتري لايفهم هذا المنطق هو يريد الحياة كالشعر لاتخضع لقانون ان تكون لحات وان تؤاتيه وان تكون الايام اعيادا لذلك عاد في احدى عوداته الى منبج وتخطاها بالطبع الى ملاعب هواه وقـد رجع وهو الغني المثري الذي جالس الخلفاء ورأى من زهو الخلافة وما في دورها من اماني الحياة ورونقها ماحقر عنده بطياس وما قبح علوة . علوة هي هي الغساله في بطياس وزوجها الزفاف الذي كان صديقا له في المنزل الخشن اخذ يراه ويراها بغير تلك العين وتمنى انهـا لو بقيت كما كان يراها يوم كان على ضفاف دجلة ويوم كان يتغزل بطيفها ويصف حياتها كما يراها في شعره تلك الحياة (المريضة) الرافهة خـاب امله وعاد الى الحياة واخذ يلوم علوة بانها خانت عهده واي عهد ويهجوها ويهجو زوجها واني اربأ بشعر البحتري الالاذ النقي عن هذا الهجاء القذر واشكر لجامع الديوان في طبعة بيروت الذي حذف مثل هذا

الهجاء وابقى لنا هذا اللون الناسع من غزله في علوة .

بودي لو يهوى العزول ويعشق فيعلم اسباب الهوى كيف تعلق
ارى خلقا حبي لعلوة دائمـــا اذا لم يدم بالعـــاشقين التخلق
وزور اتاني طـــارقا فحسبته خيالا اتى من اخر الليل يطرق
اقيم فيه الظن طورا مكذبا به انه حق وطـــورا اصدق
اخاف وارجو بطل ظني وصدقه فالله شكى حين ارجو وافرق
وقد ضمنا وشك التلاقي ولفنـــا عناق على اعناقنـــا ثم ضيق
فلم ار الا مخبرا عن صبـــابة بشكوى والا عـــبرة تترقرق
فاحسن بناوالدمع بالدمع واشج نمـــازجه والخد بالخد ملصق
ومن قبل قبل التشاكي وبعده تكاد بها من شدة الوجد تشرق
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه لحبب من اجل التلاقي التفرق

ويحسن ان تراجع الميمية في مديح المتوكل المشـــروحة ففيها وصف طيف علوة على اثمه ويظهر انه بعد ان وقف منها ذلك الموقف هجرهـــا واستحيا ان يذكر طيفها فضلا عن ذكرها فاننا لم نجد ذكرها في قصائد الوزير اسماعيل بن بلبل ومن مدحهم في ايامه هو لم يزل يذكر الاطياف ولكن اسم علوة غاب الى الابد يذكر اسم سعدي وما سعدى وعلوة الا اسماء مستعارة لهذا الخيال الذي اخترعه البحتري في هذا الشعر الغزل الرقيق والمهم ان غزل البحتري قد شاخ مع جسمه انظر الى طيف سعدى وقابله بطيف علوة .

طيف تاوب من سـعدى فحياني اهـواه وهو بعيد النوم يهواني
فيالها زورة يشـفى العليل بها لو انها جلبت يقظى ليقظان

مهزوزة ان مشت لم تلف هزتها في الخيزران ولم توجد مع البان
يدني الكرى شخصها مني ويبعدني هجر فيعد مني شخصها الداني

وكل هذا الشعر على هذا النمط بعيد عن تلك الروح الوثابة ودونك الجفاف في سوى هذه القافية —

اطلب النوم كي يعود غراره بخيال يحلو لدى اغتراره
كم تلاق ارتكه عن قريب صلة الطيف طارقا وازديارة
وهي في حلبة الشباب تضاهي جدة الروض مشرقا نواره
صبغ خد يكاد يدمى احمرارا ورده في العيون او جلناره
وفتور من طرف احوى اذا صرفه اعنت القلوب احواره
انه للعدى وما لي منه م اليوم الا استيحاشه ونفاره
جاره الله حيث كان وان لم يجد نفعا مقالتي الله جاره

هذا غزل نفس قد شاخت وذهبت الايام بجدتها .

يقول هذا القول وقدقارب الثمانين وهيهات ان تؤاتي النفس وتخدم الحياة المطالب اللاذة .

قلن ابن الشباب في عقب فوت وهو قول اعيا على جوابه
وعموت الفتى وان كان حيا حين يستكمل النفاد شبابه

وكم كنا نود ان تبقى صورة علوة كاملة منزهة في ذهن ذلك الشيخ الفاني ولكن افسدتها حياة القصور ودور الخلافة والوزارات وهذه الثروة الطائلة مسكينة علوة مسكينة ماتت في خاطر البحتري اخر ايامه وخلدت في حياته وشعره الحقيقي وما كان اغنانا عن هذه التنقيب ووصولنا الى هذه النتيجة المؤلمة لكنها حقيقة واما اكثر ايلام الحقائق

آراء متفرقة

قررنا ان الشاعر لايستقر رأيه ولايمكن ان يؤخذ بما قال في ساعة تدعو اليها الشاعرية وعبقرية الشاعر ترجع الى هذه الومضات والى تقريرها لذلك لم يكن لنا بد من تتبع هذه الاراء وانما نحترس من ان نقول ان البحتري كان يرى هذا الرأي او يدفع عنه او ينسب ذلك الى حكمة او فلسفة .

اول هذه الاراء هو نظرته في الحياة فالمتتبع في اول امره يراه يحب الحياة ويعب من مناهلها ونتيجة هذا العب ان يعرف كيف يستمتع باللذائذ وقديما راينا الشعراء والحكماء يحبون الحياة فيحرصون عليها حتى يتركوها لورثتهم هم يعرفون ان ذلك لايعني حب الحياة ولكنهم لا يتمكنون من ان يسيطروا على ملكاتهم الخلقية ، من هذه الناحية مروان بن ابي حفصة من الشعراء والكندي من الحكماء وسهل بن هارون من الكتاب ومنهم من كان مستهترا لايهمه شيء ولا يعبأ بنظام ولا قانون يلبي طلب الحياه وينقم منها كما كان بشار ومطيع بن اياس او يتلذذ بنعمها كما كان يفعل ابونواس ومسلم ويميل اليها ولكن بقدر كما كان يفعل الجاحظ والنظام .

فمن اي هؤلاء البحتري ؟ . البحتري من كل هؤلاء يحرص على الدنيا حتى يستطيع ان يصرفها في اموره ومن هنا نراه يطلب المال والمديح عنده وسيلة الى هذه الدنيا حتى اذا اتته لايعرف كيف يحرص عليها ذلك كان شأنه عندما قدم العراق وعندما رأى الخليفة المتوكل

والوزراء وجلساء الخليفة فكان ينفق كل ماتصل اليه يده ينفقه في هذه الدنيا الرافهة التي تتسع لاموال الخلفاء والعظماء، هذه الخمر وما يتبعها من صنوف الملذات لاتبقى على مال واحيانا على كرامة وفي هذه الاونة وبين هذا التصويب والتصعيد رأينا البحتري يطلب الخمر وهو فن شعري سنه ابو النواس واضرابه او يطلب غلاما وهذا من من لزوميات الخمر فيقولون هذا استجداء لايليق بكرامة وهو يجري بسنن القدماء وان الملوك لايستحيامن مسألتهم، وقدتكون هذه المسألة براعةطلب تسير بخبرها الركبان وتزيد شعر البحتري رونقا كقوله اسلم ابا العباس وأبق م ولا ازال الله ظلك

وكن الذي تبقى لنا ابدا ونحن نموت قبلك

لي حاجة ارجو لها احسانك الاوفى وفضلك

والمجد مشترك عليك قضاءها والشرط املك

فلئن كفيت مهمها فلمثلها اعددت مثلك

قيل ان هذه الابيات قالها لاحمد بن ثوابة المكنى بابي العباس وان احمد هذا وقع في رقعته [مقضية والله الذي لااله الا هو ولو اتلفت المال واذهبت الحال فقل — رعاك الله — ماشئت متبسطا وثق بما انا عليه مغتبطا ان شاء الله]

وله مثل هذه كثير اي يكون في مثل هذه الطلبات منفرج عن نفس الشاعر واظهار النباهة والتفوق ولا نرى انها خسة فيه كما نرى في ايامنا هذه من يرسل قطعة نفيسة يتصعلك بها فتجري الدموع من محاجر تطيب لها نفس الكاتب واريد ان اقول ان كثيرا من هذه المواقف عند شاعرنا كانت تمثيلا لا حقيقة .

رأيه في المرأة

اذا قلنا المرأة فلا تريدها عروس شعره وحلية فنه لاتخلو منها قصيدة يبرزها كما يشاء الفن فهي المرأة العربية التي وصفها امرؤ القيس وانما تريد مقام المرأة في الاجتماع . لم يكن البحتري ممن يقررون نظم الحياة ولا ممن يهتمون لهذه الاوضاع فهو العربي المسلم يسير بسيرة الاقدمين وهو يراها متمة للرجل والاسرة ابنة واختا وزوجة واما . واتفق ان ماتت ابنة لابي نهشل محمد بن حميد الطوسي وقام للعزاء فتقدم منه البحتري يعزي على طريقة الاقدمين .

الاسى واجب على الحر اما نية حرة واما رياء
اتبكي من لاينازل بالسيف م مشيحا ولا يهز اللواء
والفتى من رأى القبور لما طا ف به من بناته اكفاء
قد ولدن الاعداء قدما وورثن م الثلاد الاقاصي البعداء

ثم جعل يمثل من التاريخ القديم على شر المراة حتى انتهى الى آدم واستزل الشيطان آدم في الجنة لما اغرى به حواء ويختمها :

ولعمري ما العجز عندي الا ان تبيت الرجال تبكي النساء

ودونك قطعة اخرى ذات خمسة ابيات يعزي موسى بن عبد الملك عن ابنة له توفيت .

ابا حسن ان حسن العزاء م عند المصيبات والنائبات
يضاعف فيه الاله الثواب م للصابرين وللصابرات

ومنزلة الصبر عند البلاء كمنزلة الشكر عند الهبات
ومن نعم الله لاشك فيه حياة البنين وموت البنات
لقول النبي عليه السلام موت البنات من المكرمات

هذا يمثل الراي القديم في الشرق ولا يخفى ان مثل هذه الاراء جاءت في ادب الغرب ايضا وهي تمثل واقعة حال . وعن السلف الصالح ان النساء لايعزى بهن فاذا جاء في شعر البحتري مثل هذا فيكون قد رسم لنا الصورة الواقعية لذلك العصر .

اما اذا عاد الى نفسه الشاعرة فنرى في شعره غير هذا فانه لما ماتت جاريته في دمشق رثاها رثاء حقيقيا دل على عاطفة تعرف كيف تصرف الامور

خليلي اني ذاكر عهد خلة توات ولم اذمم حميد ودادها
فوا عجبا ما كان انضر عهدها لدي وادنى قربها من بعادها
وكنت ارى ان الردى قبل بينها وان افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسي من عاديت من اجل فقده بلادي ولولا فقده لم اعادها

يقول هذا لان تلك المرأة قد ماتت في دمشق وهو بصحبة المتوكل وعنى ببلاده الشام وعلى كل حال لايؤخذ للبحتري الشاعر رأي ولا سيما وهو لايرى في امرأة عصره مايسجل مأثرة حتى انه لما حجت أم المتوكل وقد انحبس المطر انفقت على عين مشاش بمكة فذكر تلك الفضيلة للمتوكل نفسه ثم عاد فكفر عن ذلك وذكرها صراحة في مديح المعتز

ابوه البحر ســـاح لنا نداه　　ففاض وامـــه ماء الغمام
سقت هلكى الحجيج واطعمتهم　　واحيت ساكني الـــبلد الحرام
وردت من نفوسـهم اليهم　　وقد اشـفوا على تلف الحمـام
فقد رجعت وفود الارض تثني　　بذاك الطول والمنن الجسـام
لئن شكر الانام فقد اغيثوا　　هناك بفضـل سيدة الانـام
اذا كفل الامام لهم بنعمى　　توات مثلها ام الامـام